كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار

قال تعالى : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } (يونس: 45).

هذه واحدة من الآيات العظيمة في سورة يونس، تصور لك مشهداً من مشاهد القيامة تجعلك تحتقر هذه العاجلة الفانية مرات ومرات. فانية يتقاتل بنو آدم عليها وهي في الحقيقة لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولا تدوم طويلاً مهما بلغ عمرها، ومهما عاش فيها بنو آدم سنوات عديدة وأزمنة مديدة.

حقيقة الحياة

الحياة الدنيا في حقيقتها ما هي إلا ساعة من نهار، مقارنة بما يراه البشر يوم القيامة. حيث سيدرك بنو آدم متأخرين جداً هذه الحقيقة حين يحشرهم ربهم يوم القيامة، وهم في ذهول من أمرهم، يتساءلون عن سرعة ما جرى لهم وبينهم في الحياة الدنيا { كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم. قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين } .

إنها صدمة من صدمات يوم القيامة للذين كانت الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم.. المحشورون مأخوذون بالمفاجأة – كما يقول سيد قطب في تفسير ظلال القرآن – شاعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة قصيرة، حتى لكأنها ساعة من نهار قضوها في التعارف، ثم أسدل الستار.

إنهم يجيئون ويذهبون وما يكاد أحدهم ينتهي من التعرف إلى الآخرين، وما تكاد الجماعة فيهم تنتهي من التعرف إلى الجماعات الأخرى، ثم يذهبون. إنه تشبيه لتمثيل قصر الحياة الدنيا، ولكنه يصور حقيقة أعمق فيما يكون بين الناس في هذه الحياة، ثم يرحلون !

لاحظ في آيات كثيرة أن البشر يوم القيامة، حين يتساءلون بينهم أو يسألهم سائلا كم كانت مدة لبثهم في الحياة الدنيا، وإن كان قد عاش أحدهم مئات السنين، ستراه يقول: يوماً أو بعض يوم { قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين} (المؤمنون: 112 – 113)، وفي مواضع أخرى تقل المدة لتصل إلى ساعة من نهار { كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار } (الأحقاف : 35).

هل يعني هذا أن البشر سيدركون متأخرين معنى الوقت، وما هي قيمة الحياة الدنيا إلى جانب الحياة الآخرة ؟

أم أن النوم بالنسبة للنائم ومثله الموت بالنسبة للميت، هو دخول للإنسان إلى حالة يمكن تسميتها بحالة اللا زمن، بحيث لا يدري ولا يشعر النائم أو الميت بالمدة التي قضاها الأول في نومه، والثاني في قبره؟ وبغض النظر عن ماهية الإجابات، إلا أننا هاهنا لسنا في محاولة لفهم فلسفة الوقت أو الزمن ومعناه، بقدر ما هي محاولة للفت النظر إلى نعمة الوقت، أو النعمة المغبون فيها كثير من الناس كما في الحديث الصحيح (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ) والفراغ المقصود في الحديث ها هنا يتمثل في إضاعة الوقت سدى، أو في غير ما فائدة تعود على الإنسان، وخاصة إذا علمنا أننا نعيش في دنيا فانية عاجلة، لا تساوي ساعة من نهار، أو يوماً أو بعض يوم مقارنة بالحياة الحقيقية في الآخرة.

حين تتأمل قوله تعالى { وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون } (الحج : 47)، وقوله تعالى { تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة } (المعارج: 4)، وهو طول مدة يوم القيامة، لا أشك أن هذه الأرقام ستجعلك أو المفترض أن تجعلك تحتقر الحياة الدنيا مرات ومرات، كما أسلفنا، وبالتالي تجعلك تخفف من التعلق بها أو بشيء فيها، فإن أقصى ما يمكن أن يعيشه الإنسان منا، ولو بلغ أكثر من مائة عام، فإنها فترة لا تساوي ساعة من نهار !!

هل تخيلت المعنى ؟

الحياة مدتها ساعة من نهار يجهد الإنسان نفسه، وتمضي الساعات والأيام من عمره يفنيها فيما لا يعود عليه بنفع في حياة حقيقية أخروية تنتظره؟ أ لمثل هذه الحياة القصيرة يترك حياة أخروية تنتظره ؟ حياة بلا ساعات وبلا أيام أو بلا زمن؟

لاشك أن الأمر بحاجة إلى مزيد تأمل، وعميق فهم، وإعادة نظر في قيمة الحياة الحقيقية المنتظرة، التي تستحق أن يبذل الإنسان كل دقيقة وثانية من واقعه الدنيوي في بناء مستقبله الأخروي.

خلاصة الحديث

إن العبرة ليست فقط في فهم حقيقة قصر مدة الحياة الدنيا، إن كانت ساعة من نهار أو أكثر فحسب، بل ماذا يقدم المرء منا في هذه الساعة القصيرة، لحياة أبدية طويلة، أو بلا نهاية لها؟

هذا ما يجب تأمله طويلاً وعميقاً، وخاصة ونحن في أواخر شهر التأمل، شهر القرآن.

عسى الله أن يتقبل منا ومنكم صلاتنا وصيامنا وقيامنا ودعاءنا وصالح أعمالنا.

إنه سميع عليم مجيب الدعوات.